{وتلك الأيام نداولها بين الناس}

خليل الشيخ *

(1)

بهذا العدد تكون "التسامح" قد أنهت السنة الأولى من عمرها الذي نرجو له الدوام، متناولة مجموعة من المحاور والقضايا تمثل طبيعة الإسلام وروحه السمحة، متوقفة عند علاقته بالآخر، ورؤية الآخر له محلّلة طبيعة الواقع الثقافي والفكري في العالم العربي، وعلاقته بالمستقبل. وهي في عددها الرابع تفسح المجال للباحثين كي يتناولوا بالقراءة والتحليل مفاهيم الأمة والجماعة والدولة في الفكر الإسلامي قديمه وحديثه.

لقد دأبت "التسامح" وهي تعالج محاورها وأبحاثها، أن تفسح المجال للباحثين كي يقدموا وجهات نظرهم، طالما ظلت رؤاهم في إطار المنهج العلمي، لتؤكد التسامح حرصها على حرية التعبير والتفكير. وفي الوقت ذاته حرصت "التسامح" أن تنشر الكثير من الدراسات والرؤى ووجهات النظر التي تتناول جوانب شتى في الإسلام وحضارته، الأمر الذي يعني أن هذه الدورية التي انطلقت وشعارها "نحو خطاب إسلامي متوازن" تهيئ المناخ المناسب للقراءات والاجتهادات التي تبحث صادقة عن الرؤى والتصورات التي تسهم في الخروج من الراهن والوصول إلى آفاق تعيد للأمة قدرتها على استئناف مشروعها الحضاري، هذا المشروع الذي لابُدّ له من أن يعي ماضيه ويستلهم عقيدته، ويدرك روح العصر، ومتغيرات العالم وقواه الفاعلة. وفي هذه الأثناء كانت "التسامح" تسعى إلى إشاعة رؤية هي أقرب ما تكون للتحليل النقدي للظواهر والمسائل والقضايا التي تتعرض لها. وإذا كانت "التسامح" تشكر الباحثين الذين استجابوا لها وأسهموا بكتاباتهم في إثراء المجلة، فإنها تأمل أن يسهم نهجها الحضاري المتوازن في استقطاب المزيد من الباحثين الجادين على اختلاف بلدانهم.

(2)

ينحو هذا العدد منحى مجتمعيا، بمعنى أن بحوثه ورؤاه تحاول أن تدرس مدى الترابط بين الفرد والجماعة والأمة في الفكر الإسلامي وفي التاريخ العربي الإسلامي. و"التسامح" تسعى إلى أن تضع هذا الترابط أو تلك العلاقة في سياق تاريخي واجتماعي، يتفحص مسألة البناء الداخلي للأمة، وقراءتها قراءة المتدّبر العازم على الإفادة من تجارب الماضي في إصلاح الراهن واستشراف المستقبل. ومن جهة أخرى فإن هذه القراءات الجادة, على ما بينها من اختلافات في الرؤى المنهجية، تسعى إلى تبيان تطور الوعي في الفكر الإسلامي، الذي كان يعي أن نشوء الأمة ونشوء الدولة بالتالي هما مسألتان اجتماعيتان، بصرف النظر عن مدى علاقة ذلك بالنصوص هنا أو هناك، وأن لهذه

المسألة تجليات مشخّصة قابلة للقياس والتحليل، سواء نظرنا إليها من زاوية تاريخية أم من منظار علم الاجتماع السياسي.

لقد أشرنا إلى أن الدراسات في هذا الحقل، تظهر الكثير من التباينات والاختلافات في الرؤى والمنهج، وهي مسألة طبيعية، لأن الكثير من الخلافات الفقهية والكلامية التي وقعت في التاريخ العربي الإسلامي لم تكن بعيدة عن هذا الجانب، وكان من الطبيعي أن تمتد هذه الرؤى إلى العصر الحديث، لأن العلاقة ما تزال قوية بين المسائل الفكرية المعاصرة تجاه هذه المسألة وجذورها التاريخية.

إن الواقع يتطلب إعادة النظر في الكثير من الجوانب التي تشكل الثقافة العامة للناس، ومن بين هذه الجوانب تبرز علاقتنا بالتاريخ التي تحتاج إلى إعادة بحث كما يقول أحد أبرز المؤرخين العرب في العصر الحديث أعني عبد العزيز الدوري:

"لقد رحنا ندرس التاريخ أحيانا ونكتبه كما يوافق أهواءنا، ويدغدغ عواطفنا، لنذهب مزهوين بما وصلنا إليه في فترة ماضية، وبدل أن نحلل وندقق لنفهم، نحاول أن ننتقي من الروايات ما يناسب، بل ونقرأ النصوص ونكسبها المعنى الذي نريد لا الذي تحمله. وحين نواجه الأزمات نتساءل، كما تساءل مؤرخ فرنسي بعد سقوط باريس: "هل خاننا التاريخ"؟

لقد حفلت مصادر التشريع في الإسلام بالحديث عن القيم الإيجابية التي ينطوي عليها الحكم في الإسلام كالعدالة والشورى والمساواة والحرية، ولكن ذلك كله يمثل الضوابط الكبرى التي كانت مصحوبة بالرؤى العديدة في مجال بناء الدولة وسلوكها الواقعي. وقد كان رضوان السّيد على صواب، وهو أحد الباحثين العرب الذين اشتغلوا على هذه المسألة بحثاً وتحقيقا لمدة زمنية طويلة، عندما رأى أنّ قراءات الباحثين لهذه الظاهرة تكاد تكون حقل تجارب لمناهج متباينة، وفرضيات مختلفة. فثمة نزعة تاريخية ترى في الصراعات الفكرية والاختلافات السياسية في التاريخ الإسلامي صراعاً بين الصورة التاريخية للتيارات والمدارس المتعددة، أما النصوص التشريعية فلا تعني عند أصحاب هذه الرؤية أكثر من يوتوبيا تسعى إلى بناء مدينة فاضلة، ولكن علاقتها بالواقع ضئيلة. وهناك نزعة نقدية تتخذ من المناهج النقدية الحديثة التي تهتم بالنص، وتغفل سياقاته المتعددة كالبنيوية والشكلانية أداة لتحليل الظاهرة. وهذه المناهج تحترم النصّ، وتؤمن باستقلاليته وتعاليه، ولكنها تضفي عليه طابع الإطلاق والتجريد، الأمر الذي يجعل النص خارج سياقاته وخارج إطاره التاريخي، وتفصله عن التلقي والفهوم التي صاحبته خلال مسيرته التاريخية الطويلة، وهو أمر يكاد يوصل إلى رؤية سكونية للنصوص. ولكن أيا كانت الاختلافات في هذا الصدد، فإن وحدة الأمة الفكرية والثقافية، ونهضتها، وقوتها، وشهودها الحضاري تظل تمثل أهدافا أساسية يتفق الجميع عليها، ويختلفون في وسائل تحقيق تلك الأهداف.

إن الصيرورة التاريخية لا تتوقف أبدا، والتغير مستمر دائما، لأنه تعبير عن حركة

الحيـاة في مـداها الإيجـابي، هـذه الحركـة التي تقبل التنّوع في الفكر، وتعطي مثلما تأخذ، وتحتفظ بما ينفع الناس ويمكث في الأرض، أما الزبد فيذهب جفاء.

****

*) مستشار التحرير.